العرب في فلسطين، من خلال أحداث رواية «الأمس الأول»، ذلك أن هذين الجانبين هما عصب أحداث الرواية. فالإستيطان مرتبط بلا شك بالنظرة إلى عرب فلسطين، سكانها الأصليين، من حيث أنه كان سيتم، حتماً على حسابهم، وسيلحق بهم الظلم الذي يتنافى مع أبسط القواعد الإنسانية.

المضمون الديني للإستيطان: إذا تناولنا فكرة الإستيطان، نجد أن عجنون يحرص، في الرواية، على الربط بين المنحى الديني والإستيطان، كما يظهر الترابط واضحاً أيضاً بين فكرة الهجرة بمضمونها الديني، وما تمثّله بالنسبة لليهود في فلسطين بالذات، وبين فكرة الإستيطان التي تُجسّد المضمون على أرض الوطن. حيث تبدأ الرواية بعبارة «ترك اسحق كومار، كسائر إخواننا، رجال خلاصنا أبناء الهجرة الثانية، أرضه ووطنه ومدينته، وهاجر إلى 'أرض ــ اسرائيل لكي يبنيها ويبني نفسه». ففكرة الخلاص هي فكرة يهودية، محض دينية، جاءت مرتبطة بفكرة الإستيطان.

وتظهر الدعوة إلى الحفاظ على التعاليم اليهودية مواكبة للدعوة إلى الإستيطان في الرواية، خدمة لفكرة الإستيطان، بالطبع. وتتمثّل محاولة الربط بين فكرة الإستيطان والمنحى الديني جلية من الرواية: «عندما رأى الحاخامون الأُول أننا نُفِينا من أرضنا، خشوا من ذوباننا في الجوييم، وسنّوا لنا فرائض كثيرة، لتمييزنا عن كافة الشعوب، فطالما كان اليهود يعيشون على أرضهم، فماذا يريد النبي منهم سوى القلب الطيّب وصنع الخير؟ وكذلك في المستقبل عندما نعود إلى أرضنا» (ص ٢٦٤).

وتعكس الرواية أيضاً اللعنة التي تحل بمن يتخلى عن المنحى الديني في فكرة الإستيطان، ذلك المنحى الذي يستخدمه عجنون لخدمة الفكرة، ومحاولة صرف الأنظار عن مراميها السياسية، وما تثيره من متاعب. ويتمثّل ذلك فيما حدث للكلب «بالاك» الذي غادر حي ميئاه شعاريم، الذي يمثّل اليهودية، لا اليهودية كمفهوم مطلق، بل اليهودية في فلسطين تحديداً، وبمعنى آخر، الإستيطان بمفهومه الديني اليهودي: «فلمّا ترك الحي هام على وجهه ولم يترك مكاناً لم يذهب إليه. كالمرتدِّين عن اليهودية الذين ينساقون وراء كل من يجزل العطاء» (ص ٢٨٣).

وتصل مغالاة عجنون، في الدعوة إلى التمسّك بالمنحى الديني اليهودي، واليهودي فقط، إلى درجة اعتبار «أن العالم ليس موجوداً إلا من أجل اليهود» (ص ٥٨٤). «والمطر لا ينزل إلا من أجلهم» (ص ٥٨٤).

ويندرج في هذا الإطار، أيضاً، إستخدام عجنون إسم «أرض إسرائيل»، بدلاً من فلسطين، في سرد أحداث الرواية، وهو أمر له دلالته من ناحية الإستيطان والمنحى الديني في آن معاً. وحتى عندما ذكر كلمة فلسطين مرة واحدة، استدرك قائلاً ان «الصهيونيين أَلِفوا، في تلك الأيام، إطلاق إسم فلسطين على أرض إسرائيل» (ص ١٧).

وتدعو الرواية، في هذا السياق، إلى الهجرة إلى فلسطين من أجل الإستيطان والعمل فيها، مبشّرة بأن هناك دافعاً ذاتياً يدفع اليهودي إلى الهجرة إلى فلسطين. فعندما يهاجر